

حديث القرآن عن محمد - صلى الله عليه وسلم

للدكتور محمد معاذ جلال

الأستاذ بكلية الشريعة

سورة الضحى :

قال تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، وسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

هذه السورة الكريمة فيما أرى جديرة أن تسمى سورة « الحب » .

وإذا نحن خلينا محاولات المفسرين في تفسيرها عندما أرادوا ، فإننا نجد هذه السورة المضيئة التى تقللنا كنجمة وهاج ، فى وحدة بلاغية متكاملة عميقة التكوين ، بارعة الأسرار ، تمثل أروع مظاهر الحب والعناية التى فاضت به الذات الإلهية المقدسة على النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى لأخشى أن أقول أنها صدرت عن الذات الإلهية المقدسة على نمط من الغزل والعشق الذى تعارفته النفوس البشرية العاشقة ، أشد ما تكون هوى وضراما .

١ - « والضحى والليل إذا سجى » .

أقسم الله بالضحى ، وبالليل إذا سجى ، والضحى صدر النهار إذا عظم شعاع الشمس وتوهج نورها ، وسجى الليل سكوته وصمته .

ومعلوم لنا أن الله لا يقسم بشيء من مخلوقاته مما يقسم به ، إلا لسر من أسرار

البلاغة البعيدة التي توظف في وجدان المخاطب ، أو في عقله من المعاني الدقيقة ،
أو الضخمة ، مالا يتأتى لأداة اللغة البيان عنه إلا بالرمز ، والإشارة .

كان من سبب نزول هذه السورة . فيما أ كثر فيه رواية المفسرين أن الوحي
انقطع عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فترة من الزمن ربما بلغت أربعين يوماً .
فجزع — صلى الله عليه وسلم — لفترة الوحي هذه جزعا شديداً وتناولت السنة
السوء إلى مكانه ، حتى قال قائلون من المشركين : « إن محمداً أودعه ربه وقلاه —
أى — أبغضه » وقالت أم جميلة امرأة أبي لهب ، ما أرى شيطانك إلا تركك ،
على ما زين لها شركها وجحودها .

فقيم هذا الجزع الذي تصف الرواية عنه — صلى الله عليه وسلم — بأنه كان
جزعاً شديداً ؟

أفكان يخاف على نفسه أن ينقطع الوحي عنه ؟ كلا فإنه لم يوحى إليه —
صلى الله عليه وسلم — بالنبوة إلا وهو يستيقن أن الوحي لا ينقطع عنه أبداً ، وإن
اصطفاه الله له بالرسالة ماض حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتثبت رسالته في الأرض .
فقيم إذن كان هذا الجزع الشديد الذي اعتراه — صلى الله عليه وسلم — لفترة
الوحي ، أياماً ، أو أسابيع .

إنه الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه وتعالى — الشوق العارم ، العنيف ،
المسلط ، الذي ملك عليه جوانب نفسه ، ونفذ إلى شغاف قلبه ، لكلام الله الكريم ،
يقتزل به الروح الأمين ، على قلبه ليكون من المنذرين .

هذا التلقى لكلام الله ، أو هذه المناجاة مع الله ، أو هذا الإلتقاء في جوار القدس
الأعلى — مما لا نستطيع تصويره ، أو تصويره — على حسب ما كان يقع من حقيقته
المباشرة ، قد أستغرق نفس النبي — صلى الله عليه وسلم — نفس النبي كلها .
بأنموذج خارق من لذة الروح ، وسعادة الوجدان ، جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم —
لا يطيق أن يجد لذاته وجوداً بعيداً عما ذاق ، وأنس وعاش ، من هذا
الوحي ، حتى لتقول بعض الروايات — أن النبي صلى الله عليه وسلم — أصابه من

شدة الشوق الذى غلب على نفسه ، أنه كان يصعد فوق قمة الجبل فيوشك أن يتردى بنفسه من فوقها .

ومحال على ذاته الشريفة أن ينفذ شيئاً من ذلك ولكن حال العشق التى كان يعانها صلى الله عليه وسلم — والتى كان تمتلج في جوانحه — وهى حال يتعالى على أفلام البشر ، النفوذ لسرها ، كان من شأنها بحسب ظواهرها الترامية ، أن تثير في نفس أى بشر — ولو كان نبياً — كثيراً التصورات المزججة —

روى أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال لجبريل ما جئتني حتى اشقت إليك — فقال له جبريل كنت إليك أشوق .

ومعلوم أن شوق النبي — صلى الله عليه وسلم — لم يكن لجبريل على الحقيقة والأصالة — وإنما كان شوقه — صلى الله عليه وسلم — للوحى ، الذى يحقق له حال المناجاة ، والاتصال ، بل الاندماج — بين روحه — صلى الله عليه وسلم — وأنوار الذات القدسية هذه الحال ذات الهيمنة الطاغية على وجدانه ، المستوعبة لكل مظاهر وجوده ، النافذة إلى أعماقه ، والتى أوشكت — بحسب تعبيراتنا الجريئة — أن تطير بنفسه شعاعاً ، عند إبطائها وفتورها ، أياماً ، أو أسابيع .

ثم عاد إليه الوحى صلى الله عليه وسلم — بهذه السورة وفي طالعها القسم بالضحى ، والليل إذا سجي ، أن ربه — رب محمد — هذا العاشق المعنى — باق على وصاله ومحبه لم يهجره ، ولم يفضه ، كما أرجف بذلك المرجفون من أعدائه وحساده ، فما أبدع المناسبة أن يحصل القسم بهذين الوقتين من الليل والنهار ، في خطاب عاشق استبد به العشق ، مشتاق غلب الشوق على صميم نفسه — فهما الوقتان اللذان تستيقظ فيهما نوازع النفوس الماشقة ، وتثور الذكريات لدى القلوب المشتاقة للوهمى .

في الضحى تسطع أضواء الشمس قوية باهرة ، غزلة ، فياضة ، فتوقظ في أعماق الإنسان ، أقوى إحساسه بالجمال ، وبالفرز ، وبالشعر ، وبالحب ، وبممانى الفن كلها: من متألم يقف ساعة الضحى على حافة الصحراء الضاحكة أو على شاطئ النيل المتموج بألوان الذهب ، أو أمام المروج الخضر البهيجة المهتزة ، من متألم يقف مثل

هذه الوقفة ، فيحس في أعماقه استجابة للجمال ، والحب ، والذكرى وفي الليل إذا
سكن كل شيء في أعماقه ، ونامت في حناياه الأصوات والحركات ، وثابت السرائر
إلى أصحابها ، وفاضت في ذلك الهدوء الوصفان بمكنوناتها وأشجانها وتجدد للعشاق
والمحبين ، ذكرياتهم وأمانهم ، فغدوا منها على حديث ونجوى فهذان الوقتان
— اللذان أقسم بهما القرآن — في خطاب عاشق ثقلت عليه أشواقه — هما قسمة
الزمن التي تقع من حظ العشاق والمشتاقين : وبكشف عن هذه الحقيقة الوجدانية التي
تربط بين حركة النفس وحركة الزمن قول الشاعر العربي في نفس المعنى :

وحلت زفرات الضحى فأطقتها ومالى بزفرات العشى يدان
وقول الآخر :

إن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غص النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد صباية وأبدت الذي لم تكن تبدى
وهكذا تبدو المناسبة بدعة رائعة عميقة نافذة لأختيار القرآن الكريم القسم
بالضحى والليل إذ سجي . في هذا القام الذي لا يلحظ مقتضاه بغير الحس الفني
والألمعية الأصيلة .

فكانه سبحانه — بقول لنبيه وجيبه . إني عليم بالذي برح بنفسك من الشوق
والحب لذاتنا فأنا أقسم بأشد أوقات حبك فيضا واشتغالا . بأننى على مثل ما يمتد إليه
حبك ، وشوقك ، ويتطلع إليه رجاؤك وأملك ، لم أحرك ولم أبغضك .

٢ — « ما ودعك ربك وما قلى »

التوديع : الهجر . والقلى : البغض

يثبت القرآن في هذا الموضع أن الله لم يهجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً
لم يبغضه ، ليؤكد له أن هذا وصال المجاملة والتكريم الذي قد يصطنعه بعض الكرماء
من الناس مع من كان لهم إلفاً ، ثم زالت محبته من قلوبهم وظلوا على وصالحهم له
بجاملين ، فلقص هذا المعنى ، لم يكتب القرآن في تصوير الاستجابة لشوق النبي
صلى الله عليه وسلم : ببيان أنه يهجره حتى أردف ذلك ببيان أنه لم يبغضه أيضاً

- أى - ما زال على حبه له - وأن وصاله له إنما هو وصال المحبة والمودة ، لا وصال
الجمالة والتسكرم .

ثم أنظر الحزان والتبئيت لقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - حين يقول « ماودعك
ربك » إنما يختار القرآن بالذات من أسماء الله كلمة « ربك » لأن « الرب » يشير إلى
معنى التربية والتنشئة والعناية بشخص المخاطب من أول الأمر .

فإذا كان المعشوق المحبوب المنادى ، هو ذلك « الرب » الذى قام على تربيتك ،
وتعهدك بالعناية من أول أمرك . فكيف يجوز أن يهجرك ويبغضك ، وهو الذى
عرفك بنفسه ، وسبق إليك بعنايته وحبه ؟

